قصة سورية

أم رشدي

بقلم الاستاذ : محمود عيسى

قدر لك ان تزور لبنان الشمالي ، وتنعم بعض الوقت باحدى قراءه المتكئة على صدر الجبل الشامخ إلى السماء .. تلك القرية (حدبه) الوادعة ، المزهوة بين احراج الصنوبر والشوح ، لا بد انك سامع ما سيقصه عليك القرويون عن ام رشدي العمياء أو « القديسة سارا »

انها من أفاضيص سمرهم ففي ليالي الشتاء — كما في الصيف — عندما تجلس الى هؤلاء القوم حول موقد ناره من أحطاب الحرش القريب تئن العيدان مصعدة أنفاسها دخاناً يملأ سقف البيت ويتسامر القوم ، لا بد انك ستسمع قصة ام رشدي . فبالله عليك اذا ما سمعت قصتها انهض مع الفجر واطلب الى احد حضار القرية ان يقودك الى المقبرة الغافية قبورها في ظلال السنديان والصنوبر ، ليس في معرفتك المقبرة أية صعوبة فهي تأتمة على تل شمالي القرية بين الاشجار . ولكن اطلب الى رفيقك ان يهديك الى قبر ام رشدي ، وهناك اذا ما جئت القبر أصبحت معرفتك لقبر رشدي هينة لأنه يقوم الى يمين قبر امه .... بالله عليك اذهب ، والمسها ، المس الحجر الوضيع القائم فوق موضع رأس ام رشدي ، المس السواد الذي وشيه من دخان البخور المحروق حوله وأطلب لروحها الرحمة ولروح ابنها رشدي الراحة ، ثم ارجوك أن تذرف دمعة على ضريح الامومة ، الامومة السامية .. دمعة اخرى على ضريح صديق عاش طريد شعوره ، ومات عليل هذا الشعور ..

أما اذا لم يقدر لك زيارة شمالي لبنان ، ولاسماع قصة ام رشدي ولا زيارة ضريحها الوضيع ، فاني لقاص عليك قصتها ...

كان رشدي رفيق دراستي كان شاذ النزوات ، سريع التأثر عصبي المزاج غريب الاطوار ، كان مشاكساً عنيداً ، ينتقد كل شيء ويتبرم بكل شيء وينقم على كل شيء حتى على نفسه . كان كثير الثرثرة كثيراً ما عكر علينا ساعة الدرس بكثرة سؤالاته التي لا ينضب لها معين . فاصبح موضع سخرية الزمان كان مشككا بكل شيء حتى بنفسه أهو انسان ام جماد ، مشككا بالارض بالسماء ، بالعدالة سماوية كانت أم ارضية ، بهذا الكيان وبهذا الوجود .

كانت حركات رشدي تنم عن شذوذ مريع ، وكان منظره وهو يماحك منظراً رائعاً حقاً ، فتظن نفسك امام فنان يحاضر عن فنه الذي يعيش فيه ليفنى فيه . وبالحقيقة فان مسحة الفن لتتجلى في كل تقاطيع رشدي . هذا الجسم الهزيل ، والشعر الأجعد الفاحم السواد المتهدل على صراعيه وعينيه هذه الجبهة العالية . وهاتان العينان السوداوان ببريقهما الأخاذ ، والأنف الاقنى والفم العريض الرقيق الشفتين ، وهذا الوجه الشاحب المستطيل ذو الذقن الذي يكاد يكون محدد ..

كثيراً ما كنا نحاول مضايقة رشدي بسؤالاتنا ، فلا يحجم عن الاجابة على أي سؤال خالطاً العلم بالفلسفة بالنسبة الى معلوماته التي آمن بنضجها .

كنت مؤمناً ان حركات رشدي نتيجة علة متأصلة في نفسه ، وان افكاره وآراءه صادرة عن روح متألمة حائرة . أحببت أن اتعرف الى مرض رشدي هذا المرض الكامن خلفه سر مؤلم ، ورحت اتقرب الى رشدي وأساير بعض آرائه ، اماحكه بهدوء ، ابحث معه كل

كل مايغمض به خاطره .. وأخيراً اطمأن لصداقتي وعطفي عليه وأخذ يكشف لي الستار شيئاً فشيئاً عن روحه .

فى أمسية من أمسي الربيع سرت ورشدي على الشاطئ نتحدث وطال بنا الحديث الى أن وصلنا مقهى قائماً على شاطئ البحر فدخلناه .. وما أن استقر بنا المكان حتى طلب رشدي خمراً — ولشدما استغربت طلب رشدي هذا — للوهلة الاولى من تفكيري ، ولكن سرعان ما عدت الى حقيقة رشدى هذه الحقيقة المتقلبة المتبرمة التي لا تؤمن بشيء ولا تعتقد بشيء ، اذ عهدي برشدى ممن يكرهون الخمرة ويحرمونها .

للمرة الاولى أشعر ان رشدى يتفلت من كابوسه ، هذا الكابوس الذي يضايقه ، من الفكرة الفكرة التى احتقنها فى صدره فعذبته طويلا ..

قال وهو يفرغ كأسه في جوفه « اسمع يا صديقي .. انا مجرم . انا مجرم قبل ان اولد ، انا مجرم قبل ان ترى عيناي النور . أو هل سمعت بمجرم من بطن أمـــه ؟ أو تدري يا صديقي ممن كان ضحيتي ؟؟ دونما شك انك عندما تعرف من كان ضحيتي .. ذلك الانسان العزيز على قلبي لابل أعز الناس لدي .

إنك عند ما تعرف ضحيتي لاحتقرتني ، لصفعتني ، لقتلتني ... »

وتنهد رشدي وجالت دمعة خلف جفنيه وقال بصوت مخنوق « انا مجرم .. والضحية ... ضحيتي .. إمي . »

ومرت فترة غاب رشدى خلالها فى جرعة من كاسه ولم أقو على مواصلة التفكير بتلك اللحظة بل أطرقت شارد اللب ساهماً ومرت برهة كأنها العمر بطوله وعاد رشدى فملأ كأسه وأفرغها فى حلقه دفعة واحدة ، ثم استطرد قائلا : « اسمع ياصديقي لاقص عليك قصة رشدى المجرم . أو على الأصح قصة ام رشدي هذه الضحية البريئة .

كان أبي وما يزال من التجار الموسرين يتمتع بسمعة طيبة اكسبته إياها اخلاقه ومعاملته للناس . وكانت امي أو قل ضحيتي من أجمل النساء واكثرهن دعة ، لقـــد تزوجا وعاشا بهناءة وسعادة يحسدان عليها لم يكن ليعكر صفو هذا الحب وهذه الهناءة التي واتتهما في جميع جهاتها لم يكن يعكر تلك السعادة في سنيها الاولى سوى الحنين الى ولد . ولد يملأ البيت حباً وبهجة وزهوا . كانت امي عاقراً فلم يدخر والدي أي جهد او مال في سبيل الحصول على زينة الحياة الدنيا . المال ملء يديه والحب يظلل بيته لم يبق له سوى أمنية واحدة تكتمل سعادته ، أمنيـــة هي انجاب ولد يحمل اسمه ، وأخلاقه وثروته .. وأخيراً من الله وأصبحت أمي حاملا فكاد البيت ينقلب الى جنة من الفرح والنشوة . وفي الشهر السادس فى حين كان أبي وأمي يعدان الثواني بارتقاب الامل الحلو واذا بوالدتي تصاب بمرض في عينيها ، وكانت المصادفة القاسية التي هدت هناءة البيت فقد قرر الاطباء ان حملها سبب مرض العينين الغاليتين وعليها ان تختار أحد شيئين . اما جنينها واما عينيها . عليها اما أن تضحي بجنينها واما ان تضحي ببصرها »

وتنهد رشدى واستعاد انفاسه كالخارج من المعركة ورفع كاسه وراح يمتصها وئيداً . وعاد الى حديثه : انها مجنونة .. مجنونة هذه المرأة ، حبها لرؤية طفل .. حبها لشيء لا تعرفه ولن ترى له وجهاً . شيء وهم مصور فى خاطر الغيب . تعلقت به ، فضحت ببصرها . انها مجنونة عاشت لخيالها ، هذا الخيال الذى جنى عليها .

وكنت انا المجرم . انا الذى رأى النور ففقدته امي احب الناس لدي ، عندما كان قلبها يهيئني لاستقبال النور كانت خيوط النور في بصرهـا تنقطع واحـداً واحدا فلم تعد ترى شيئاً .. أينا هو المجرم ياصديقي ؟ أنا أم هذه المرأة المجنونة ؟ لا لا أنا المجرم الذي قضى على امرأة ذنبها انها احبتني قبل ان تعرفني ... »

كانت الايام تسير بركاب الايام وصداقتي لرشدي تقوى يوما فيوما اذ لمست جرحه بقلبي وبقيت الفكرة الفاشلة تلاحق رشدى ، وأبوه وأمه يقدمان له كل ما في وسعهما لاسعاده لان امه لم تنجب سواه ولانه كان عليل

عليل هذ الشعور المؤلم ..

وتزيد الايام في ضغطها على قلب رشدى فيموت أبوه فكان على رشدى أن يترك المدرسة لادارة اعمال أبيه ، لكنه الفتى الشاذ من أين له أن يقدر على الكفاح والجلد لعاملة الناس ، هؤلاء الذين يعدهم مجرمين وهو أبوهم ، لقد تلاشت الثروة وطار المال ورشدى لايهتم لدنياه إلى أن أحس الألم يعصر قلبه لأنه أصبح وامه في عوز .

وصحا رشدى ساعة الى نفسه فالفاها غير قادرة على احتمال ماهو فيه من فكرة مريرة وقفز مرير فترك وطنه مهاجراً الى افريقيا حيث تجارة خاله الواسعة .

عاش رشدى عند خاله يساعده في اعماله التجارية يوافي امه ماتحتاجه من المال بعد ان تركت منزل زوجها وعادت الى قرية اهلها تعيش بين ذويها .

كانت حياتها في القرية خلوة دائمة وصلاة متواصلة « اللهم أمنية واحدة » اللهم من علي برؤية رشدى . . . من ثم .. من ثم يا الله اطفئ سراج حياتي .. كانت تردد هذه الصلاة المنبعثة من قلبها المكلوم دونما تفكير بمعناها اذ كيف يتسنى لها رؤية رشدي وهي العمياء منذ أعوام لكنه السمر الروحي ، ولكنه الايمان العميق ، كانا يدفعانها لهذه الصلاة التي يرددها القلب ساعات دون اللسان

كانت تعيش على القليل من الطعام وتوزع القسم الاكبر مما يأتيها من ولدها من دراهم على الفقراء والمعوزين تعيش على فكرة واحدة ، على صلاة واحدة « اللهم ارزقني رؤية رشدى .. ثم .. ثم اطفئ سراج حياتي » !!

وكان رشدى يسير في دنياه طريد الفكرة القاتلة المريرة التي كانت تلاحقه أينما حل ورحل . هذه الفكرة التي ساعدها جو افريقيا على القضاء على رشدى ، فقد أدمن رشدي على الشراب قصد السلوان والهرب من فكرته هذه فكان ان أصيب « بداء الصدر » فنصحه الاطباء بالعودة الى لبنان للاستشفاء .

وعاد رشدي الى لبنان ، عاد ليدخل المصح ، ومن ثم يعلم امه بقدومه صحيحا معافى - بعد أن يترك المصح - ويطرح نفسه على صدرها الحنون . واستقبله بعض اقربائه - دون علم امه - ونقلوه الى المصح ، وبقيت ام رشدي تتسلم الرسائل والدراهم من افريقيا على انها من رشدى .. ورشدي على بعد أميال منها . وأخيراً حسم القدر ، ولم يقو قلب رشدي ولا جسده المهدم على مقاومة الداء فقضى بين براثن الألم .. والمرض .. والشعور المرير .

في ضحى يوم من أيام نيسان . كانت الطبيعة في عرس وكانت ام رشدي غارقة في صلاتها وإذا باحد أنسبائها يدعوها بعد مقدمة راجفة لاستقبال جثمان رشدى ..

فلم تذرف دمعة ولاصعدت آهة . بل واصلت صلاتها وعندما دخلوا عليها برشدي محمولا في نعشه اقتربت منه بهدوء وطمأنينة ، ورفعت عن وجهه الغطاء . بيدين هادئتين ورفعت وجهها الى السماء وراحت تتمتم بضع كلمات لم يفهم أحد منها شيئاً ثم عادت لتتطلع الى وجه رشدى بهدوء . وقد اخذت القوم الرهبة عندما نظروا الى ام رشدى فاذا بها تحدق بوجهه كأنها تراه ، وزاد استغرابهم عندما رأوا العينين وقد زالت عنها غشاوتها ، وظهرتا بصفاء رائق ...

كانت ما تزال تتمتم .. وقد همت بثغر رشدى تقبله . برهة واذا بالمتمتمة تخفت . واذا بالقبلة تموت على ثغرين .

بعد ساعة كانت جثتان تحملان معاً . الى .. الى المصير المجهول ..

سوريا : محمود عيسى

اعلان

البيان العدد ٦٧و٦٨ التاريخ ٤٩/٧/١٠

سيجري تسجيل الدار ذات ت ٢٠٩٤ الواقعة في محلة البراق الامير غازي في النجف تمليكا وتصحيحاً باسم العراقي السيد كاظم السيد جعفر ربيع باعتبارها ملكا صرفا فعلى من يدعي خلاف ذلك مراجعتنا خلال ثلاثين يوما من تاريخ أول نشرة مستصحباً مستنداته .

١-٣ مأمور طابو النجف